جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الدور الاجتماعي للإمام أحمد بن حنبل
(ت:٢٤١هـ/٨٥٥م)
(علاقته مع العامة والعلماء والحكام نموذجًا)

إعداد
د/ رضا السعيد إبراهيم محمد
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية اللغة العربية بالمنصورة

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الدور الاجتماعي للإمام أحمد بن حنبل(ت:٢٤١هـ/٨٥٥م)
(علاقته مع العامة والعلماء والحكام نموذجًا)

رضا السعيـد إبراهيم محمد.
قسم التاريخ والحضارة، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: redaalsaeid.32@azhar.edu.eg

الملخص:

برز في تاريخ حضارتنا الإسلاميّة العديد من العلماء والفقهاء الذين كان لهم دور رائد في خدمة المجتمع علميًّا وتربويًّا ودينيًّا؛ فكان الإمامُ أحمد بن حنبل واحدًا من هؤلاء الأئمة الأعلام الذي لم تقتصر جهوده على الجوانب الدينيَّة والعلميَّة فحسب، وإنّما كان له دور اجتماعيّ كبير تجلي في علاقته مع جميع فئات المجتمع، ويهدف البحث إلى التأكيد على أنّ دور العلماء لم يقتصر على الدور العلمي والديني فقط، وإنَّما كان لهم أدوار أخرى لا تقل أهمية عما سبق، كدورهم الاجتماعيّ والإصلاحيّ، وتفاعلهم مع جميع طبقات المجتمع، أمَّا عن منهج البحث فقد قام علي منهج البحثِ التاريخيَّ التحليليَّ، فضلًا عن المنهج الإحصائيَّ لرصد دورِ الإمام أحمد الاجتماعيَّ، مع جمع المعلومات وتصنيفها وتحديد العلاقة بينها، ويسلط البحث الضوء على حياة ونشأة الإمام أحمد، ومعاشه، وحاله مع أهله، ثم علاقته مع طبقة العامَّة، التي قامت على برِّه لهم، بالبذل والسخاء والإنفاق عليهم، ونجدته للملهوف منهم، ثم تطرق الحديث إلى علاقته مع أترابه من أهل العلم، حيث عمل على استضافتهم في بيته، وصنع لهم الولائم، كما تبادل معهم الهدايا، وعمل على توجيه النصح والارشاد لهم، وشاركهم الزيارات في المناسبات الاجتماعيَّة، ثم اشتمل الحديث على علاقته بالخلفاء والأمراء، وامتناعه عن مجالستهم، وطرق أبوابهم؛ ورعًا وزهدًا، ورفضه تولي المناصب، وقبول عطاياهم، ومن أهم نتائج البحث: أن الإمام أحمد كان متواضعًا مع أهله، رفيقًا بهم، مُتلطِّفًا معهم، حيث كان في خدمتهم، يشتري

الخبز من السوق، ويحمل الحطب، كما أحسن لطبقة العامَّة وأقرانه من أهل العلم، فكان حليمًا، ناصحًا لهم، كثير البذل والصدقة للمحتاجين منهم، حريصًا على قضاء حوائجهم، بما تيسر له من جهد ومال، وشاركهم مناسباتهم العامَّة من زواج، وختان، وزيارة المرضى، وغير ذلك؛ مما أدى إلى إجماع القلوب على محبته، وحظي باحترامهم وتقديرهم.

الكلمات المفتاحية: الدور – الاجتماعي – الإمام – أحمد – حنبل– العلماء– العامة – الحكام.

The social role of Imam Ahmad ibn Hanbal (d. 241AH /855 AD)
(His relationship with the public scientists and rulers is a model)

Reda Al-Saeed Ibrahim Mohammed.
Department of History and Civilization, Faculty of Arabic Language in Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: **redaalsaeid.32@azhar.edu.eg**

Abstract:
Imam Ahmad bin Hanbal - may God have mercy on him - was one of these prominent imams, whose efforts were not limited to the religious and scientific aspects only, but had a great social role manifested in his relationship with all segments of society, and the research aims to emphasize that the role of scientists was not limited to The scientific and religious role only, but they had other roles no less important than the above, such as their social and reformist role, and their interaction with all classes of society, as for the research methodology, it was based on the analytical historical research methodology, as well as the statistical method to monitor the social role of Imam Ahmad, with the collection of information, classification and determination of the relationship between them, The research sheds light on the life and upbringing of Imam Ahmad, and his livelihood, and his situation with his family, then his relationship with the public class, which was based on their righteousness; Among the most important results of the research: that Imam Ahmad was humble with his family, a companion with them, gentle with them, where he was in their service, buying bread from the market, and carrying firewood, as well as the best for the public class and his peers from the people of knowledge, so he was dreamy, advising them, a lot of giving and charity to the needy ones, keen to meet their needs, with the effort and money available to him, He

shared with them their public events of marriage, circumcision, visiting the sick, etc., which led to a consensus of hearts to love him, and he won their respect and appreciation.

Keywords: Role - Social - Imam - Ahmad - Hanbal - Scholars - Public - Rulers.

المقدمـــة

الحمدُ لله الذي أَعزنْا بنعمةِ الإسلامِ، وجعل التاريخَ عبرةً لذوي الأفهامِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خيرِ الأنامِ سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وعلى آلهِ وصحابتهِ الكرامِ.

وبعد،،،

سجل التاريخُ في صفحاته بأحرفٍ من نور بصماتٍ خالدة لرجالٍ وهبوا حياتهم للعلم والمعرفة وخدمة الإنسانيّة، فلا عجب في ذلك، فهم حرَّاس العقيدة الإسلاميَّة، وهم النجومُ المضيئةُ التي تستنيرُ بها المجتمعاتُ، وقد أبان عددٌ من العلماءِ عن حرصهم على وحدةِ المسلمين وتماسكهم، فقد خالطوا النَّاسَ، واهتموا بشؤونهم، وأظهروا لهم وجهَ الحق، وجانبَ الصوابِ في ممارساتهم وتصرفاتهم، بالمخالطةِ، والوعظِ، والإرشادِ، والتربيةِ، والنصيحةِ المباشرة.

ويأتي الإمامُ أحمد بن حنبل– رحمه الله – في طليعة هؤلاء، وذلك بما سطرّه من نتاج علميّ خالد حتى يومنا هذا، وما قدّمه من خدمات جليلة في تهذيبِ النفوس، والأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكر، ومحاربةِ البدعِ بالدليلِ والحجةِ والبرهانِ والموعظةِ الحسنة.

وسبب اختيار موضوع البحث: عدم وجود دراسة مستقلة عن هذا الموضوع – على حد علم الباحث –، ناهيك عن كون البحث يؤكد على أنّ دور العلماء لم يقتصر على العلم والتدريس فحسب، وإنَّما لهم أدوار أخرى لا تقل أهمية عما سبق، كدورهم التربويّ والاجتماعيّ والإصلاحيّ، وتفاعلهم مع جميع فئات المجتمع.

وتبدو أهميةُ موضوعِ البحثِ: في كونه يعمل على ربطِ الأجيال بتراث السلف الصالح، وبما كان عليه علماؤنا الأجلاء، بتتبع جهودهم العلميَّة والاجتماعيَّة والْسِّياسيَّة وأثر ذلك في المجتمع.

وعن تساؤلات البحث: فيحاول البحث أن يجيب عن هذه التساؤلات: هل اقتصر دور الإمام أحمد بن حنبل على الجانب العلمي والديني؟ هل حرص ابن حنبل على توطيد علاقته بطبقة العامة وأترابه من العلماء؟ هل كان الإمام أحمد منعزلًا عن الحكام والأمراء؟

وعن الدراسات السابقة:

- عبد الله سعد الغامدي: الإمام أحمد بن حنبل محتسبًا، ماجستير، كلية الدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، وتناول منهج الإمام أحمد بن حنبل في الاحتساب، وموقفه من الفرق الضالة والزنادقة، واحتسابه في محنة خلق القرآن.
- ختام محمود الفرعان: الفكر التربوي عند الإمام أحمد بن حنبل، ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، واشتملت على تطور الفكر التربوي حتى عصر الإمام أحمد ابن حنبل، والسمات المميزة له، ومساهمات ابن حنبل في تنشيط الفكر التربوي، وآراؤه التربوية.
- مصطفى خلف الخوالدة: منهج الإمام أحمد بن حنبل في العمل السياسي، ماجستير، كلية الشريعة، جامعة مؤتة، الأردن، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، وتناولت حياة الإمام أحمد بن حنبل الشخصية والعلمية، ودوره في العمل السياسي.
- فاطمة أحمد الفكي: موقف الإمام أحمد بن حنبل من الفرق الباطنية، ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤هـ، وتضمنت بداية ظهور فرق الباطنية، وألقابها، وموقف ابن حنبل من هذه الفرق وعقائدها.

وعن خطة البحث: فقد جاء البحث في تمهيد، وثلاثة مباحث:

التمهيد: تناول حياة الإمام أحمد، ونشأته، ومعاشه، وحاله مع أهله.

المبحثُ الأوَّلُ: علاقة الإمام أحمد مع طبقة العامَّة، وتضمن نجدته للملهوفين، وسخائه على الفقراء والمساكين، وحرصه على قضاء حوائجهم، وتخفيف البلاء عليهم، وإدخال السرور عليهم.

المبحثُ الثّانيُ: علاقته مع أقرانه من العلماء، واشتمل على تواضعه وإكرامه لأترابه من العلماء وطلاب العلم، حيث عمل على استضافتهم في بيته، وصنع الموائد لهم، كما تبادل معهم الهدايا، وشاركهم الزيارات في المناسبات الاجتماعيَّة.

المبحثُ الثّالثُ: علاقته مع الخلفاء والأمراء، وتضمن زهده فيما عندهم، حيث كان بعيدًا عن مجالستهم، رافضًا تولى الوظائف، وقبول عطاياهم؛ ورعًا وخشيةً.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة، آية ٢٨٦.

التمهيد

حياة الإمام أحمد ومعاشه وحاله مع أهله:

يُعَدُّ الإمام أحمد ابن حنبل واحدًا من مشاهير الأئمة في تاريخ حضارتنا الإسلامية؛ وذلك بما قدّمه من نتاج فكريّ، ودينيّ، واجتماعيّ، وتربويّ، ظل خالدًا حتى يوم النَّاسِ هذا، لذا احتلت سيرته وجهوده منزلة رفيعة ومكانة عظيمة لدى الكُتَّاب والمؤرخين.

نسبه: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عَبد الله بن حَيّان بن شَيْبان بن ذُهْل بن ثَعلبة بن ربيعَة بن نزار بن معد بن عدنان بن إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم – عَلَيْهِما السَّلام– [(١)].

قال أبو يعلي (ت ٥٢٦هـ/١١٣٢م): وهذا النسب فِيهِ منقبة عميمة ورتبة عظيمة من وجهين: أحدهما: حيث تلاقى فِي نسب رَسُول اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن نزارًا كان له ابنان، أحدهما: مُضَر، ونبينا محمد – صلى الله عليه

(١) صالح ابن حنبل: (صالح بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي ت ٢٦٥هـ/٨٧٩ م) سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط٢، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج١، ص٣٠، أبو يعلي: (أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد ت ٥٢٦هـ/١١٣٢م)، طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٤، ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) مناقب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط٢، دار هجر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ، ج١، ص ١٦، ابن خلكان: (شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان الإربلي ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر ، بيروت، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ج١، ص٦٤.

وسلم – من ولده، والآخر: ربيعة، وإمامنا أَحْمَد من ولده، والوجه الثاني: أنه عربي صحيح النسب [١].

وكانت أم أحمد بن حنبل شَيبانية، واسمها صفية بنت مَيمونة بنت عبد الملك الشيباني، وكان جدها عبد الملك من وجوه بني شيبان، وكان ينزل عليه قبائل العرب؛ فيضيفهم [٢].

وهكذا فإن الإمام أحمد كان من أبوين عربيين، من أكرم وأشرف وأجود القبائل العربية، قبيلة بني شيبان التي تلتقي مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في نزار بن معد بن عدنان، وقد اشتهرت بالهمة والصبر، وحسن البلاء في الجاهلية والإسلام، وكانت من أكثر القبائل عددًا، وأعزها نفرًا، وأعظمها مآثرًا[٣].

مولده: ولد في شهر ربيع الأَول سنة ١٦٤هـ/ نوفمبر ٧٨١م، ببغداد، في بيت كريم من بيوت بني شيبان، وطلب العلم بها، ثم رحل إلى العديد من البلدان والأقطار الإسلامية [٤].

نشأته: نشأ في العراق، وطلب العلم والحديث من شيوخها، ثم رحل بعد ذلك في طلب العلم إلى الكثير من البلاد، وكان في غاية السمت والأدب، قال

(١) أبو يعلي: طبقات الحنابلة، ج١، ص٥.

(٢) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد،ج١، ص ٢١.

(٣) محمد أبو زهرة : ابن حنبل " حياته وعصره، آراؤه وفقهه"، دار الفكر العربي، القاهرة، ص١٥.

(٤) صالح ابن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص٢٩، ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ج١، ص١٣، ١٤، الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: بشار عوّاد، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م، ج٥، ص١٠١٠.

أبو سِراج بن خُزيمة[١]: كنا مع أبي عبد الله في الكُتَّاب، فكان النساء يبعثن إلى المعلم:" ابعث إلينا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم، فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ينظر إليهن، فكان آية في أدبه، وحسن طريقته" [٢] .

طلبه العلم ورحلته فيه: كان ابن حنبل شديد الإقبال على العلم، فسافر في طلبه السفر البعيد، ولم يتشاغل بكسب ولا نكاح حتى بلغ منه ما أَراد، وقد ابتدأ ابن حنبل في طلب العلم من شيوخ بغداد، ولم يكتف بما حصله من علوم في بغداد، فرحل في سبيل ذلك إلى العديد من الأقطار، طالبًا العلم على كبار المشايخ، فرحل إلى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والجزيرة، وكتب عن علماءِ كل بلد [٣]

وقد حرص ابن حنبل على طلب العلم وتدوينه إلى أخر عمره، ومما يدل على ذلك أن رجلًا رأي مع الإمام أحمد مِحْبَرَة، فقال له: "يا أَبا عبد الله، أَنت قد

(١) أحمد بن أصرم بن خزيمة بن عباد بن عبد الله المزني البصري الهمذاني، حدّث عن: أحمد بن حنبل، وابن معين، وعبد الأعلى بن حماد، وغيرهم، وروى عنه: أبو عوانة، والقاسم بن أبي صالح، وأبو جعفر العقيلي، كان ثبتًا، شديدًا على أصحاب البدع، مات عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٣، دار الرسالة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م، ج١٣، ص٣٨٤.

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٢٢، ٢٣ .

(٣) الخطيب البغدادي:(أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ج٦، ص٩٠، ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ج١، ص ٢٥، ٢٧، عبد الله سعد الغامدي: الإمام أحمد بن حنبل محتسبًا، ماجستير، كلية الدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص٣٨.

بلغت هذا المبلغ، وأَنت إِمامُ المسلمين، فقال: مع المِحبرة إلى المَقْبرة"[١]. ورُوي عنه قوله: " أَنا أَطلب العلم إلى أَن أَدخل القبر " [٢].

وكان الإمام أحمد يجيد التحدث بالفارسية، ويتكلم بها إذا كان مخاطبه لا يحسن العربية، ولا يستطيع الفهم بها، فيروي الذهبي: أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته ونزل عنده، ولما قدم له الطعام كان أحمد بن حنبل يسأله عن خراسان وأهلها، وما بقي من أهل أحمد بها، وربما استعجم القول على الضيف، فيكلمه أحمد بالفارسية[٣]. ويذكر الشيخ محمد أبو زهرة: " ليس معني علم أحمد بالفارسية أنه استعان بها في فقهه، ففقهه فقه أثري نقلي، ليس فيه اعتماد على الاستنباط الفلسفي، ومسائله المروية عنه ليس فيها ما يدل على تأثر بفكر فارسي " [٤].

شيوخه: حرص الإمام أحمد على تلقي العلم على كبار العلماء والمُحدِّثين، وبدأ في طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل: بلغ عدد مشايخه الذين روى عنهم في "المسند": مائتان وثمانون ونيف[٥]، ومن أبرز شيوخه: إسماعيل ابن علية (ت١٩٣هـ/٨٠٩م)، ووكيع بن

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٣٧ .

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص ٣٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢١٧.

(٤) ابن حنبل حياته وعصره، ص٣٥.

(٥) النِّيفُ: ما بَيْنَ العَقْدين؛ لأَنها زِيَادَةٌ، يُقَالُ: لَهُ عَشْرَةٌ ونَيِّف، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْعُقُودِ، يُقَالُ عِشْرُونَ ونَيِّفٌ، وَمِائَةٌ ونَيِّف، وأَلف ونَيِّف، وَلَا يُقَالُ نَيِّفٌ إِلَّا بَعْدَ عَقْد، قَيلَ: وَإِنَّمَا قِيلَ نَيِّفٌ؛ لأَنه زَائِدٌ عَلَى الْعَدَدِ الَّذِي حَوَاهُ ذَلِكَ العَقْد. ابن منظور: (محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور الأنصاري الأفريقى ت ٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٩، ص٣٤٢.

الجراح(ت١٩٦هـ/٨١٢م)، والقاضي أبو يوسف(ت١٨٢هـ/٧٩٨م)، ومحمد بن إدريس الشافعي(ت٢٠٤هـ/٨١٩م)، وعبد الرحمن بن مهدي (ت١٩٨هـ/ ٨١٤م)، ومعروف الكرخي(ت٢٠٠هـ/٨١٦م)، وغيرهم [١] .

ثناء العلماء عليه: نعت الكثير من العلماء الإمام أحمد بالعديد من الأوصاف والألقاب العلميَّة التي كانت تلائم منزلته ومكانته، فقيل عنه: أحد أئمة الإسلام، والهداة الأعلام، أحد الأئمة الأربعة الذين كانت تدور عليهم الفتاوى والأحكام في بيان الحلال والحرام، والحق هو بها وغيرها جدير، حيث كانت مخايل العلم والتقى تَظهر عليه منذ نعومة أظفاره، وكان إذا سُئِلَ عن المسأَلة كأَن علم الدُّنيا بين عَينيه، كأن الله جمع له علم الأَولين والآخرين من كل صنف، يقول ما شاء، ويُمسك ما شاء [٢].

ولذلك أَثنى عليه مشايخه وقدّموه، قال: أَحمد بن سَعيد الدارمي[٣]: ما رأَيتُ أَسوَد الرأس أَحفظَ لحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا أَعلَم بفقهه ومَعانيه، من أَبي عبد الله أَحمد بن حنبل[٤].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص١٨٠، إبراهيم النحاس: الجامع لعلوم الإمام أحمد (علوم الحديث)، ط١،دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م ، ج١٥، ص٤٢٥، ٤٢٦ .

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٧٧، ختام محمود الفرعان: الفكر التربوي عند الإمام أحمد بن حنبل، ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٢٩.

(٣) أبو جعفر أحمد بن سعيد بن صخر الدارمي السرخسي، وُلد عام ١٨١هـ/٧٩٧م، سمع من: النضر بن شميل، وجعفر بن عون، وأحمد بن إسحاق الحضرمي، وأكثر التطواف، وتوسع في العلم، وبُعد صيته، وكان عالمًا بالرجال والعلل والتاريخ، مات عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٢٣٣.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٧٨.

وقال آخر: ما رأَيتُ أَفقه من أَحمد بن حنبل ولا أَروع [١]. وقيل: إن يَعِشْ هذا الرجل يَكُنْ خَلفًا من العلماءِ [٢].

وقال عبد الرحمن بن مهدي[٣]: كاد هذا الغلام أَنّ يكون إمامًا في بطنِ أُمه [٤]. وقال قتيبة بن سعيد[٥]: لو أَدركَ ابن حنبل عَصر سفيان الثوري، ومالك، والأوزاعي، والليث بن سَعد، لكان هو المقُدَّم[٦]. وقال أيضًا: لولا الثوري، الثوري، لماتَ الورع، ولولا ابن حنبل، لأَحْدَثُوا في الدين ما شاءوا [٧].

وقال الشافعي: خرجتُ من بغداد وما خلَّفتُ بها أَحدًا أَورعَ ولا أَتقى ولا أَفقه ولا أعلمَ من أَحمد بن حنبل[٨]. وقال مُهَنَّأ بن يحيى الشامي[٩]: ما رأَيتُ أَحدًا

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٨٧.
(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص ٨٩ .
(٣) ابن حسان بن عبد الرحمن، أبو سعيد العنبري، ولد: سنة ١٣٥هـ/٧٥٣م، سمع من: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، وخلق كثير، وروى عنه: ابن المبارك، وابن المديني، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، كان من كبار العلماء، وأحد المذكورين بالحفظ والفقه. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١٠، ص٦٩.
(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٩٣.
(٥) أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي البلخي البغلاني، وُلد: عام ١٤٩هـ/٧٦٦م، ارتحل في طلب العلم، وكتب ما لا يوصف كثرة، فحمل الكثير عن: مالك، والليث، وشريك، وحماد بن زيد، وأبي عوانة، وابن لَهيعة، مات عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص١٣.
(٦) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ١٠٤.
(٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص ١٠٥.
(٨) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٣.
(٩) أبو عبد الله الشامي الفقيه، صاحب الإمام أحمد، دمشقي نزل بغداد، وحدث عن: يزيد بن هارون، ودواد بن الجراح، ومكي بن إبراهيم، وبشر الحافي، وروى عنه: إبراهيم بن هانئ النيسابوري، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، ويحيى بن صاعد، مات عام ٢٥١هـ/٨٦٥م. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٦، ص٢١٧.

أَجمع لكلِّ خير من أَحمد بن حنبل، وقد رأَيتُ سفيانَ بن عُيَيْنةَ، ووكيعًا، وكثيرًا من العلماءِ؛ فما رأَيتُ مثل أَحمد بن حنبل في علمه وفِقهه وزُهده وَوَرعه [١].

مُصنفاته: كان الإمام أحمد يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي، ويُحب التمسك بالأثر، فكان لا يرى وضع الكتاب، وينهي أن يُكتب عنه كلامه ومسائله، ولولا ذلك لكانت له تصانيف كثيرة، ولنقلت عنه كتب، فكانت تصانيفه المنقولات؛ فصنف: كتاب "المسنَد" ، وهو ثلاثون ألف حديث، وكان يقول لابنه عبد الله: احتفظ بهذا المسند؛ فإنه سَيكون للناس إمامًا، وكتاب" التفسير"؛ والناسخ والمنسوخ"، " وكتاب "الرد على الزنادقة"، وكتاب" المقدَّم والمؤخَّر في القُرآن"، وكتاب "المناسِك الكبير "، وغيرها [٢].

ولا شك أن هذه المكانة العلمية التي نالها الإمام أحمد بن حنبل وثناء العلماء عليه قد قادته إلى المعالى، وجعلت طلاب العلم يفدون إلى مجالسه من كل حدب وصوب، حيث كانت مجالسه تمتلئ بآلاف الطلاب.

زواجه: تزوج الإمام أحمد بعد الأربعين، وكانت أوَّل زَوجاته عَباسة، أُمُّ صالح، ولم يولد له منها غيره، ثم توفيت، ويقول ابن حنبل: أقامَت معي أم صالح عشرين سنة فما اختلفتُ أنا وهي في كلمةٍ [٣]، ثم تزوج بعد وفاتها رَيحانة أُم عبد الله: فولدت عبد الله، ولم يولد له منها غيره، فأقام معها سَبعًا [٤]، وكان له من السراري حُسْن التي ولدت له زينب، ثم الحسنَ، والحُسينَ توأمًا، وماتا بالقُرب من ولادتهما، ثم ولدت الحَسن ومُحمدًا فعاشا حتى صارا من السنِّ

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ١٨٩.
(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٦١، ٢٦٣.
(٣) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٢، ٤٠٣.
(٤) ابن الجوزي: نفسه، ج١، ص٤٠٣ .

إلى نحو الأربعين سَنة، ثم ولدت بعدهما سعيدًا [١]. وجارية أخرى اسمها رَيحانة، فعلى هذا يكونُ قد اشتَرى جاريتين [٢].

معاشــه: عـاش الإمـام أحمـد كفافًـا، أتتـه الـدنيا فأباهـا، والرياسـة فنفاهـا، وعُرِضـت عليـه الأمـوال وفرضـت عليـه الأحـوال، وهـو يـرد ذلـك بتعفـف وتعلـل وتقلل، ويقول قليل الدُّنيا يُجزي، وكثيرها لا يُجزي، ويقول أنـا أفرح إذا لـم يكـن عندي شيء، ويقول إنَّما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وأيام قلائل[٣].

وكـان الإمـام أحمـد يعـيش مـن غلـة طُـرز قـد تركـه لـه أبـوه، فكـان يؤجرهـا ويتعفف بها عن النَّاسِ[٤]. ويظهر من ذلك أنه كانت له دكاكين يؤجرها، ويعيش من ريعها.

وكانـت زوجتـه أم صـالح فـي الغـلاء تغـزل غـزلًا دقيقًـا، وكـان ابـن حنبـل يجيء بالغزل ويستره ويبيعه، فربما باعه بدرهم ونصف، أو درهمين، فكان ذلك قوته [٥].

وكانت حُسْن جارية الإمام تغزل أيضًا، فلما خرج إلى سامراء، غزلت غزلًا لينًا، وعملت ثوبًا حسنًا، فلما قدم، أخرجته إليه، وكانت قد أعطيت كراءه خمسة عشر درهمًا من الغلة، فلما نظر إليه، قال: ما أريده، قالت: عندي غيره، فباعه باثنين وأربعين درهمًا، وغزلت ثوبًا كبيرًا، فقال: لا تقطعيه، دعيه، فكان كفنه[٦].

---

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٤٠٦.

(٢) ابـن الجـوزي: المصـدر السـابق، ج١، ص٤٠٨. الـذهبي: سـير أعـلام النـبلاء، ج١١، ص٣٣٢، ٣٣٣.

(٣) أبو يعلي: طبقات الحنابلة، ج١، ص٩.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٠٦.

(٥) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص٤٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢٠٩ .

(٦) الذهبي: المصدر السابق، ج١١، ص٣٣٢، ٣٣٣ .

وقد اقتدى الإمام أحمد بن حنبل بالنبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – في خدمته لأهله، فكان يشترِي الخُبْزَ مِنَ السُّوْقِ، وَيَحملُهُ فِي الزَّنْبِيلِ، وكان ربما خرج إِلَى الْبَقَّال يَشْتَرِي الحزمة من الحطب والشيء فيحمله [١].

وعلى الرغم من فقره، وضيق عيشه، كان ورعًا، زاهدًا، حيث كان يؤجر نفسه للحمل في الطريق، إن لم يجد ما ينفقه سوى هذه الأجرة، فلما خرج لطلب العلم على أحد المشايخ انقطعت به النفقة؛ فأكرى نفسه من بعض الجَمّالين إلى أن وافى صَنعاءَ، فعرض أصحابه عليه المواساة؛ فلم يَقبل من أحد شيئًا [٢].

ووقع من يد ابن حنبل مِقراض[٣] في البئر، فجاء ساكن له فأخرجه، فلما أن أخرجه ناوله مقدار نصف درهم أقلَّ أو أكثر، فقال: المِقراض يساوي قيراطاً، لا آخذ شيئًا، فخرج، فلما أن كان بعد أيام، قال له: كَم عليك من كِرى الحانوت؟ قال: كرى ثلاثة أشهر، وكراؤه في كل شهر ثلاثة دراهم، فضرب على حسابه وقال: أنت في حِلٍّ[٤].

وكان يكتب للناس بأجرة إن لم يجد نفقته، أخبر عَليّ بن الجهم[٥]: " كان لنا جار فأخرج إلينا كتابًا، فقال: أتعرفون هذا الخط؟ قلنا: هذا خط أحمد بن

(١) صالح ابن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١،ص ٣٥. ابن مفلح: (شمس الدين محمد بن مفلح بن مفرج المقدسي الصالحي ت ٧٦٣هـ/١٣٦٢م)، الآداب الشرعية والمنح المرعية، عالم الكتب، ج٢، ص٢٨.

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٥.

(٣) جمع مقاريض، وهو المقصُّ، وهو ما يُقرض به الثوب ونحوه. ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص٢١٦.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٤.

(٥) علي بن الجهم بن بدر السامي، من ولد سامة بن لؤي بن غالب، كان شاعرًا ، و له اختصاص بالمتوكل، وكان فاضلًا متدينًا، ذا شعر جيد مستحسن، إلَّا أنه كان يتكلم عند المتوكل على أصحابه؛ فحبسه المتوكل، ثم نفاه إلى خراسان، مات ببغداد عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٢، ص٢٦.

حنبل، فكيف كتب لك؟ قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة، ففقدنا أحمد أياما، ثم جئنا لنسأل عنه، فإذا الباب مردود عليه، وعليه خلقان، فقلت: ما خبرك؟ قال: سرقت ثيابي، فقلت له: معي دنانير، فإن شئت صلة، وإن شئت قرضًا، فأبى. فقلت: تكتب لي بأجرة؟ قال: نعم، فأخرجت دينارًا، فقال: اشتر لي ثوبًا واقطعه نصفين، يعني إزارًا ورداءً، وجئني ببقية الدينار، ففعلت وجئت بورق، فكتب لي هذا" [١].

وهذا يؤكد مدى ورع الإمام أحمد، وحرصه على أن يكون مورد رزقه من حلال لا شبهة فيه، مهما كان نوع هذا العمل، المهم أن يكون المال من حلال.

وفاته: مرض الإمام أحمد في مستهل ربيع الأول من سنة ٢٤١هـ/ ٢٠ يوليو ٨٥٥م، ثم كتب وصيته، ثم استدعى الصبيان من ورثته ودعا لهم، ثم اشتد به الوجع، وبعد حياة حافلة بفضائل الأعمال وافته المنية ليلة الجمعة ١٢ من ربيع الأول عام ٢٤١هـ/ ٣١ يوليو ٨٥٥م، وعمره سبعًا وسبعين سنة وأيامًا [٢].

وصفوة القول: فإن الإمام أحمد جمع بين العلم والفقر والجود والعفة وعزة النفس والصبر والورع، فصار مضرب الأمثال، وكان وافر النجابة والذكاء، منذ نعومة أظفاره، قل أن يجود الزمان به، وأَمَّ حلقته العلميَّة آلاف الطلاب من كل أرجاء العالم الإسلامي، ولزمه الكثير من الطلاب النجباء الذين نشروا علمه، وحملوا فقهه إلى الآفاق.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص ١٠١٣.

(٢) ابن كثير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج١٠، ص٣٤٠ .

المبحثُ الأوَّلُ: علاقته مع طبقة العامَّة.

ضرب العلماء أمثلة متعددة في الإيثار والتضحية لطبقة العامَّة، فخفضوا لهم الجناح، وعاملوهم بكل تواضعٍ، وأحسنوا للمحتاجين منهم، وقدموا لهم ما استطاعوا من خدمات، فمنهم مَنْ كان كثير البر، شديد التواضع للفقراء والمساكين، ومنهم مَنْ يزور المنقطعين والأرامل ويلطف بهم، ومنهم مَنْ يبذل المعروف والصدقة للمحتاجين، ومنهم مَنْ كان كثير الاهتمام بأمور النَّاسِ كلهم، ويسأل عن الأهل والجيران والأصحاب، لا يكاد يسمع بمريض إلَّا زاره، وغيره من وجوه البر، ويأتي الإمام أحمد بن حنبل في طليعة هؤلاء، فقد كان – رحمه الله – لين الجانب، شديد التواضع للفقراء والمساكين والضعفاء، كثير الصدقة والبر، حريصًا على قضاء حوائج النَّاسِ، وإدخال السرور عليهم، وكان إذا جاء إليه أقل الخلق ضحك في وجهه، وبش به وتلطف به، وكان كثير التواضع للصغير والكبير، كثير الصدقة والمعروف، من أفضل النَّاس ديانةً وصيانةً، وفقهًا وعلمًا، وأدب نفس، وكَرم خُلق، وكرم مجالسة، ما ترك شيئًا من الخَير إلَّا وبادر فيه [١].

وكان الإمام ابن حنبل لا يجهل، وإن جُهِل عليه احتمل وحَلم، ولم يكن بالحَقود ولا العَجول، بل كان حليمًا بالنَّاسِ، قوالًا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وآية ذلك أنه وقع بين عمه وجيرانه مُنازعة؛ فكانوا يَجيئون إلى ابن حنبل، فلا يُظهر لهم ميله مع عمه، ويتلقاهم بما يعرفون من الكرامة[٢].

وكان كثير التواضع، يُحب الفقراء، لم يرَ الفقير في مجلس أعزُّ منه في مجلسه، مائلاً إليهم، مُقصرًا عن أهل الدُّنيا، تعلوه السكينة والوقار، وكان حسن الخلق، دائم البشر، ليّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ؛ وكان يُحبُّ في الله ويُبغضُ

(١) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ج١، ص٢٩٤.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٢٩٨.

في الله، وكان إذا أحبَّ رجلاً أحبَّ له ما يحبُّ لنفسه، وكره له ما يكره لنفسه، ولم يمنعه حبه إياه أن يأخذ على يديه، ويكفه عن ظُلم أو إثم أو مكروه، إن كان منه، وكان إذا بلغه عن رجل صلاحٌ أو زهد أو قيامٌ بحق أحبه وقربه منه [١].

صبره على تحمل الأذى: نسج ابن حنبل علاقات طيبة مع جيرانه، فكان حَسن الجوار يُؤذى فَيصبر، ويحتمل الأذى من الجار؛ حكى بعض جيرانه، ممن كان بينه وبينه حائط : " كان لي برج فيه حَمام، وكان يُشرف على أبي عبد الله، فكنت أصعد وأنا غُلام أشرف عليه، فمكث على ذلك صابرًا لا ينهاني، فبينا أنا يومًا إذ صعد عمي فنظر إلى البُرج مُشرفًا على أبي عبد الله، فقال: وَيحك، أما تَستحي تؤذي أبا عبد الله؟! قلت له: فإنه لم يَقل لي شيئاً، قال: فلستُ أبرحُ حتى تهب لي هذه الطيور، فما بَرح حتى وهبتُها له فذبَحها وهَدم البُرج"[٢].

لقد كان ابن حنبل ذا نفس أبية، يعفو ويصفح ويحلم عمن يجهل عليه، حسْنُ الْجِوَارِ والصَّبْرُ على الأذى، فقد جاءه رجل، فقال له: إِنِّي قد حضرت ضربك يوم الدَّار[٣]، وَأُرِيد أَن أستحله، وجعل يبكي، فَإِنَّ أَحْبَبْت القصاص فَأَنا

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٢٩٨.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٢٧٧.

(٣) المقصود محنة خلق القرآن، وقد تداوله المأمون(١٩٨- ٢١٨هـ/٨١٣ - ٨٣٣م) بالحبس، والمعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/٨٣٣- ٨٤٢م) بالضرب، والواثق(٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) بالإخافة والتَّرهيب، فما كان في هذه الحال إلَّا سليم الدين غير تارك له من أَجل ضَربٍ ولا حبسٍ، ثم امتحن أيام المتوكل(٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) بالتكريم والتَّعظيم، وبُسطت الدُّنيا عليه فما رَكن إليها، ولا انتقل عن حالته الأُولى رغبةً في الدُّنيا ولا رغبةً في الذكر، فأظهر الله عزَّ وجلَّ به السُّنَّة، وكشفَ تلك الغُمّة، فشكره النَّاسُ على ما فعل، وكتب المتوكل بعدم الكلام في القول بخلق القرآن، ثم كتب إلى نائبه ببغداد أن يبعث بابن حنبل إليه، فأكرمه وعظّمه. ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٣٠، ٣٣٧.

بَين يَديك، وإن رأيت أن تحلني فعلت، ففقال عَلى أن لا تعود لمثل ذلك، قال نعم، قال: إنِّي جعلتك فِي حلَّ، فخرج يبكي وبكى من حضر من النَّاسِ [١].

وجاءه رجل شارب مسكر، وقال له: إني تكلمت فيك بشيء، فاجعلني في حِلٍّ، فقال له ابن حنبل: أنت في حِلّ إنْ لم تعدّ [٢]، وبلغ حلمه السفهاء، فقد أخبر ذات مرة عن رجل سَفِيهٍ يتكلَّمُ وَيُؤْذِي، قال: "لا تَعَرَّضُوا لَهُ إنَّهُ مَنْ لم يُقِرَّ بقليل ما يأتي به السَّفِيهُ أَقَرَّ بالكثير" [٣].

وهكذا فإن العفو من مكارم الأخلاق السامية، وقد غلب الإمام أحمد بن حنبل جانب العفو والصفح، فكان يقابل الأذى بالصفح الجميل، والإساءة بالإحسان، ويعفو عمن ظلمه، فرُغم ما أُبتلي به من ابتلاءات، ما فكر يومًا أن ينال من مسلم آذاه، لقد كان دائمًا ذا نفس أبية، يبيت وقلبه ليس فيه غل ولا حقد على أحد.

ويفرح الإمام أحمد بتوبة جيرانه ورجوعهم إلى الله، ومما يدل على ذلك أنه كان في جيرانه رجل، وكان ممن يمارس المعاصي والقاذورات، وقد حزن ابن حنبل لحاله، فجاء يومًا إلى مجلسه، فسلّم عليه، فكأن الإمام أحمد لم يرد عليه ردًّا تاماً، وانقبض منه؛ لسوء فعاله وإصراره على المعاصي، فأخبره بتغير حاله عما كان تعهده منه برؤيا النبي – صلى الله عليه وسلم – في المنام، وقد بَغَّض الله إليَّ ما كنتُ عليه، فسرّ به ابن حنبل[٤].

(١) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص١٢٦.

(٢) خالد الرباط، سيد عزت عيد: الجامع لعلوم الإمام أحمد بن حنبل (الرجال)، ط١، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ج٢٠، ص١٤٢.

(٣) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج٢، ص٨.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٢٧٧، ٢٧٨.

سخائه وبره بهم: حثَّ الإسلام على الجود والكرم، وبشر المولى – عزَّ وجل – أهل السخاء والجود والكرم بالجائزة الكبيرة والمنزلة العليا في الدُّنيا والأخرة، فعن طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:" إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا"(١). وامتثالًا لذلك كان الإمام أحمد كريم الاخلاق، كثير الإنفاق والسخاء، وربما واسى من قوته، رغم فقره، وضيق ذات يده، أخبره أبو بكر المُروذى(٢) بمرض أحد الفقراء، فقال له: اذهب إليه، واحمل إليه ما يشتهى، ودفع إليه طِيباً، وقال له: طَيِّبه (٣).

وصلي أحمد بن حنبل الجمعة يومًا، فلما سلّم الإمام قام سائل يَسأل النَّاس، فأخرج أحمد قِطعة فدَفعها إليه، فقال له رجل: ناولني قِطعتك ولكَ بها درهم، فما زال يزيده حتى بلغ خمسين درهماً، فقال له السائل: لا أعطيك؛ إني لأرجو فيها ما ترجو أنت (٤).

---

(١) البيهقي: (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ م، باب الجود والسخاء، حديث رقم ١٠٣٤٦ ، ج١٣، ص٢٨٧.

(٢) أحمد بن محمد بن الحجاج، أبو بكر المروزي، صاحب الإمام أحمد ، وروى عنه أحاديث ومسائل كثيرة، كانت أمه مروزية، وأبوه خوارزميًّا، توفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م، ودفن قريبًا من قبر أحمد بن حنبل. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج١٢، ص٢٦٤.

(٣) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٦٤.

(٤) ابن عساكر: (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ دمشق ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م، ج٥، ص ٢٩٨، ٢٩٩، ابن الجوزي: =

ورُزق ابنه صالح بولد، فأراد أن يختنه، فاتخذ له طعامًا كثيرًا، ودعا قومًا، فلما أراد أن يختنه وجَّه إليه ابن حنبل، فقال له: بلغني ما أحدثته لهذا الأمر، وقد بلغني أنك أسرفت، فابدأ بالفقراء والضعفاء فأطعمهم [١].

كما عمل الإمام أحمد على نجدة الملهوفين، وتخفيف الابتلاء عنهم، حيث كان هناك جار له نسَّاج يشتكي من شدة المرض، فكان يئنُّ بالليل، فخرج ابن حنبل في جوفِ الليل، وزاره ودعا الله له[٢].

وسعى الإمام أحمد إلى التخفيف عن النَّاس، ونهي عن التضييق عليهم في معاشهم، فقد سُئل عن الدقاقين – الذين يتاجرون في الدقيق– ؟ فقال: إنَّ أموالًا جُمعت من عموم المسلمين إنها لأموال سوء؛ وذلك لما فيه من احتكار الأقوات وإرادة غلائها، وغير ذلك مما هو سبب في إضرار المعصومين، وهو ضرر عامّ، فالأموال المجموعة من التجارة في ذلك أموال سوء، واحتج به على كراهة التجارة في القوت والطعام [٣].

كما كان النَّاسُ يلتمسون دعائه، ويتباركون به، قيل: "قدم جار له كانت أمه مُقعدةٌ نحو عشرين سَنة، فقالت له يومًا: اذهب إلى أحمد بن حنبل فَسلهُ أن يَدعو الله لي، فجاءه الرجل، وقال له: إن أمي مُقْعَدَةً تسألك أن تَدْعُو لها،

=

مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٦، ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، ط١، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م، ج٣، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٢٩٦، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ١٠٣٢.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٣٩٩.

(٣) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية،ج٣، ص٢٩٤.

فغضب أحمد بن حنبل، وقال: كيف قصدتني؟ قُل لوالدتك تَدْعُو لي، هذه مُبْتلاة، وأنا مُعَافي، ثم دعا لها، فوهبَ الله لها العافية" [١].

وهنا يتجلى تواضع وورع الإمام أحمد – رحمه الله –؛ فرغم عبادته وصلاحه وتقواه وعلمه، يغضب خشية أن يُفتن به النَّاس، ويصفونه بما ليس أهلًا له.

علاقته بأهل الذمة: حرص ابن حنبل على حسن معاملة أهل الذمة، فكانوا يحبون زياراته، وقد سُئل أحمد بن حنبل عن الرجل المسلم يقول للرجل النَّصراني: أَكرمكَ الله، قال: نعم، يقول: أكرمك الله، ويَنوي: بالإسلام[٢]. ورُوي أن طبيبًا نصرانيًّا ومعه راهب كانا ينزلان عند ابن حنبل ويحبون مجالسته [٣].

وأُدخل نصرانيًّا على أبي عبد الله، فقال له: إني لأشتهي أن أراك منذ سنين، ما بقاؤك صلاح للإسلام وحدهم، بل للخلق جميعًا، وليس من أصحابنا أحد إلَّا وقد رضي بك[٤]. فقيل له: قد يكون يدعى لك في جميع الأمصار، فقال: إذا عرف الرجل نفسه، فما ينفعه كلام النَّاس[٥].

وقد تأثر جموع النَّاس بوفاته، حتى أهل الذمة، وقيل: يومَ مات أحمد بن حنبل وقع المأتم والنَّوح في أربعة أصناف من النَّاس: المسلمين، واليَهود، والنَّصارى، والمجوس[٦].

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٩٨. ابن مفلح: الآداب الشرعية، ج٢، ص٢٨.
(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٧٩.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢١١ .
(٤) الذهبي: المصدر السابق، ج١١، ص٢١١ .
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢١١ .
(٦) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٥٥٨، ٥٦٥.

إجابته لدعوة الداعي: كان الإمام أحمد بن حنبل يأتي المناسبات فَيُجيبُ فِي العُرسِ وَالخِتَانِ، وَيَأْكُلُ [١]، وقد صنع أحد أصحابه مأدبة كبيرة، وقدّم طعامًا كثيرًا، وكان في القوم أحمد بن حنبل، ويحيى بن مَعِين[٢]، وجماعة، فقدَّم لَوْزِنَجًا[٣] أنفق عليه ثمانين درهمًا، فقيل: هذا إسراف، فقال: ابن حنبل: لا، لو أن الدُّنيا جُمعَت حتى تكون في مقدار لُقمة، ثم أخذها امرؤ مسلمٍ، فَوضعها في فَم أخيه المسلم؛ لما كان مُسرفًا، فقال له يحيى: صَدقتَ يا أبا عبد الله [٤].

وربما استعفى ابن حنبل من الإجابة، وذلك إذا رأى إناء فضة أو منكرًا، وآية ذلك: كان رجلٌ يختلفُ يقال له: أحمد بن الحكم لْعَطَّار، فختن بعض ولده، فدعا ابن حنبل وجماعةً من أصحاب الحديث، فمضوا، فلما دخل ابن حنبل أجلس في بيت، ومعه جماعة من أصحابه، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، هاهنا آنية من فضّة، فالتفت فإذا كُرسي، فقام فخرج، وتبعه مَنْ كان في البيت [٥].

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٠٠.

(٢) سيِّد الحفّاظ، أبو زكريا المرِّي البغدادي، ولد عام ١٥٨هـ/٧٧٥م ، كان أبوه من نبلاء الكُتَّاب، فخلَّف له ألف ألف درهم فيما قيل، سمع من: ابنَ المبارك، ومُعتمر بن سُليمان، وروى عنه: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأحمد، وغيرهم، مات عام ٢٣٣هـ/٨٤٨م. الدمشقي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي ت ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٣م) طبقات علماء الحديث، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، ط٢، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م،ج٢، ص٧٩.

(٣) فارسي معرب، وهو لباب القمح بلعاب النحل، وقيل: الفالوذج من الحلواء: هو الذي يؤكل، يسوى من لب الحنطة. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٥٠٣.

(٤) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ج١، ص٢٩٨.

(٥) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص٤٨، ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٧٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢٢٦.

قبول الهدية: كان الإمام أحمد يقبل الهدية ويتبادلها مع النَّاس، وذلك في إطار المودة والمحبة، وتأليفًا للقلوب وجبرًا للخواطر، أهدى إليه رجلٌ فالوذج، فكافأه سكرًا بدراهم صالحة(١).

وأهدى رجل إلى ابن حنبل ماء زمزم، فأرسل إليه سَوِيقًا(٢) وسُكرًا؛ وأمر بشراء هدية لرجل بنحو خمسة دراهم (٣).

وأهدى جار له شيئًا من جوز وزبيب وتين ما يساوي ثلاثة دراهم أو أقل، فأعطى ابن حنبل دينارًا لأحد أصحابه، وقال: اذهب فاشتر بعشرة دراهم سكرًا وبسبعة دراهم تمرًا، واذهب به إليه في الليل، ففعل(٤).

ومجمل القول: فإن الإمام أحمد ابن حنبل كان له اهتمام كبير بأحوال الناس، فنظر في مشاكلهم، وتألم كثيرًا لمعاناتهم، وعمل على تخفيف ما نزل بهم من بلاء ومحن، لذا حظي باحترام العامَّة وتقديرهم، وزاد ارتباطهم به بشكل كبير، وأضفوا عليه كل مظاهر التقدير والتكريم، كما ظنوا أَنَّ الإسهام في حمل نعشه عند وفاته يُعَدُّ تكريمًا له، وتعظيمًا لشأنهم، وتبركًا بجثمانه الطاهر، فلما مرض ابن حنبل واشتدت علته وتسامع النَّاسُ أقبلوا لعيادته، فكثروا، ولزموا الباب الليل والنهار يبيتون، وأُذن للنَّاس في الدخول عليه، فدخلوا عليه أفواجًا أفواجًا يُسلمون عليه، فيرد عليهم بيده، وتجمع النَّاسُ في الشوارع والمساجد؛ حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراءِ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل

(١) صالح بن حنبل: سيرة أحمد، ج١، ص٤١ ، ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٧.

(٢) مَا يُتَّخذ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، وَالْجَمْعُ أَسْوِقة. ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص١٧٠.

(٣) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٧.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٣٢٧، ٣٢٨.

عليه ربما أدخل من بعض الدور وطرزِ الحاكة، وربما تسلَّق، وجاءَ أصحاب الأخبار فقَعدوا على الباب[١] .

ولما وافت الإمام أحمد بن حنبل المنية تسابق العامَّة على توديعه، وأظهروا على رحليه الحزن الشديد، وتهافت جموع المشيعين على النعش لحمله، وألقى بعض المشيعين الماء والعمائم على النعش؛ التماسًا للبركة، حتى قيل: ما رُوي جمعاً قطَّ أكثر من ذلك، و مُسِحَت الأمكنة المبسوطة التي وقف النَّاس عليها للصلاة عليه، فحُزِر مقادير النَّاس بالمساحة على التقدير ستّ مئة ألف وأكثر، سوى ما كان في الأطراف والحَوالي والسطوح والمواضع المتفرقة، أكثر من ألف ألف، وقد تأثر جموع النَّاس بوفاته [٢].

وقد ازدحم النَّاسُ على قبره، روى أحد أصحابه: "مكثتُ طول الأسبوع رجاءَ أن أصلِ إلى قَبره، فلم أصل من ازدِحام النَّاس عليه، فلما كان بعد أسبوع وصلتُ إلى القَبر" [٣]. ولزم بعض النَّاس القبر وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين، فأرسل السلطان الجنود فلزموا ذلك الموضع حتى منعوهم؛ مخافة الفتنة [٤].

مما سبق يتبين أن الإمام أحمد بن حنبل كان مقتديًّا بالنبي – صلّى الله عليه وسلّم– في سلوكه وعلاقته بالنَّاسِ، حيث أكرمهم، وشاركهم أفراحهم وأتراحهم، وكان يجيب دعوتهم في المناسبات، لذا كانت له المنزلة الرفيعة والمكانة العالية لدى فئات النَّاس.

(١) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص١٢٦، ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٥٤٢، ٥٤٣.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٥٥٨، ٥٦٥.

(٣) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ج١، ص٥٦٣.

(٤) ابن الجوزي: نفسه، ج١، ص٥٦٢.

المبحثُ الثَّانيُ: علاقته مع أقرانه من العلماء.

حرص الإمام أحمد بن حنبل على توطيد علاقته بأقرانه من أهل العلم، فكان من أحيا النَّاسِ، وأكرمِهم نَفسًا، وذِكر الصالحين والزُّهاد في وَقار وسكون ولفظٍ حسن؛ وإذا لقيه إنسان بَشَّ به وأقبل عليه، وكان يتواضع للشيوخ تَواضعًا شديدًا، وكانوا يُكرمونه ويعظمونه، وكان يفعل بيحيى بن مَعين ما لم يفعل بغيره من التواضع والتبجيل، وكان يحيى أكبر منه بنحو من سبع سنين [١].

وتميز الإمام أحمد في علاقته مع العلماء بالسخاء والبذل والجود، ومما يدل على ذلك أن هارون بن سُفيان المُسْتَمْلِي[٢] أصابته ضائقة مالية، فجاء إلى ابن حنبل حين أراد أن يُفَرِّقَ الدَّرَاهِمَ التي جاءَته من الخليفة المتوكِّل(٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م)، فأعطاه مئتي درهم؛ فقال: لا تكفيني، قال: ليس هاهنا شيء غيرها، ولكني أعمل بك شيئًا، أعطيك ثلاثمائة درهم فرِّقهَا، قال: فلما أخذتُها قلت: يا أبا عبد الله، ليسَ والله أعطي أحدًا منها شيئًا، فَتَبَسَّمَ [٣]. واشتكى هارون بن سفيان المستملي ذات مرة للإمام أحمد ضيق العيش، وقال له: ما عندنا شيء؛ فأعطاه خمسة دراهم، وقال له: ما عندنا غيرها [٤].

---

(١) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ج١، ص٢٩٥.

(٢) بن بشير بن يزيد بن هارون، يعرف بالديك، حدّث عن: يزيد بن هارون، ومعاذ بن فضالة، ومحمد بن عمر الواقدي، وروى عنه: ابن أبي الدنيا، و المدائني، وغيرهم، مات ببغداد سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج١٦، ص٣٦ .

(٣) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٢٩٩.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق،ج١، ص٣٢٥.

وربما واسى ابن حنبل من قوته، جاءَه أبو سعيد الضرير[١]؛ فشكى إليه، فقال له: ما عِندنا إلَّا هذا الجذع، فَجِيء بحَمّال يحمله،:فأخذ أبو سعيد الجِذع فباعه بتسعة دراهم ودانقين [٢] وقضى أحواله [٣].

كما أحسن ابن حنبل ضيافة الغرباء، فقد قدم عليه رجلُ من الزُّهاد ، ملابسه رثة، وهو حاف في برد شديد، فسلم عليه، وقال: يا أبا عبد الله، قد جئت من موضع بعيد، وما أردت إلَّا السَّلام عليك، وأخرج إليه ابن حنبل أربعة أرغفة مشطورة بكامخ[٤]، وقال: لو كان عندنا شيء، لواسيناك [٥].

(١) أحمد بن خالد البغدادي، استقدمه عبد الله بن طاهر من بغداد إلى خراسان، وأقام بنيسابور وأملى بها المعاني والنوادر، ولقي أبا عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وكان يلقى الأعراب الفصحاء الذين استوردهم ابن طاهر نيسابور فيأخذ عنهم، كان عالمًا باللغة والأدب، يختار المؤدبين لأولاد قواد عبد الله بن طاهر، ويبيّن مقدار أرزاقهم، ويطوف عليهم، ويتعهد من بين أيديهم من أولئك الصبيان، مات عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م، وهو ابن مائة سنة وأربع سنين. الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ج١، ص٢٥٣.

(٢) الدَّانق، بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِهَا: وهُوَ سُدُسُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالْجَمْعُ دوانِق ودَوانِيقُ. ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص١٠٥.

(٣) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد،ج١، ص٣٢٥.

(٤) الكامَخُ: لفظٌ فارسيٌّ مُعَرَّبٌ، وهو: نَوْعٌ مِنَ الأُدْم، والجمع كوامخ. ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص٤٩.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢١٠ .

صنع الموائد: كما عمل الإمام على حسن ضيافتهم وصنع الموائد لهم، فكان كريمًا بضيوفه من أهل العلم، رغم ضيق حاله، فقد حضره قوم من أهل الحديث من إخوانه، فاشترى لهم بما كان عنده، وأطعمهم [١].

وقدم أحد أصحابه عليه يوم عيد، فقال له: ادخل، فلما دخل، فإذا مائدة وقَصْعة على الخِوان وعليها عُراق وقِدْرٌ إلى جانبه، فقال: كُل، فلما رأى ما به، قال: إنَّ الحَسن البصري (ت١١٠هـ/٧٢٨م) كان يقول: والله لتأكلنّ، وكان ابن سيرين (ت١١٠هـ/٧٢٩م) يقول: إنما وضع الطعام ليؤكل، وكان إبراهيم بن أدهم (ت١٦٢هـ/٧٧٩م) يبيع ثيابه ويُنفقها على أصحابه، وكانت الدُّنيا أهون عليه من ذاك – وأومأ إلى جذع مطروح – فانبسطتُ وأكلتُ[٢]. وهنا تجلى إكرام الإمام أحمد لضيوفه من أهل العلم، فرغم فقره، كان يقدم لهم كل ما لديه من طعام، ويحسن إليهم بطلاقة الوجه وطيب الحديث.

وكان ابن حنبل كثير التكريم والتقدير والمجالسة للإمام الشَّافعي، وبينهما مؤدة ومؤانسة، فقد أخبر صالح بن أحمد بن حنبل: "ركب الشَّافعي حماره، فسار أبي يمشي إلى جانبه وهو يذاكره، فبلغ ذلك يحيى بن معين، فبعث إليه أبي في ذلك، إنك لو كنت في الجانب الآخر من الحمار لكان خيرًا لك" [٣].

وكانت بين الإمام أحمد بن حنبل وإبراهيم بن هانئ مودة ومؤانسة، وكان إذا تَوارى من السلطان توارى عنده[٤].

---

(١) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد، ج١، ص٣٤٦.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٣٢٥.

(٣) النووي: (محيي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٦٠.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٧٤.

كما كان يحب مجالسة علي بن المديني[١] وبينهما صحبة ومودة [٢].

ويؤكد أَبو عُبيد القاسم بن سلام[٣] على ذلك، حيث كان بينه وبين ابن حنبل صحبة ومودة، ويتبادلان الزيارة، فعند زيارته لابن حنبل يكرمه ويجلسه في صَدْرِ دَارِهِ، ويجلس دونه، فقال لابن حنبل: "لو كنتُ آتيك على نحو ما تستحق لأَتيتك كل يوم، فقال: لا تقل، إنّ لي إخواناً لا أَلقاهم إلَّا في كلّ سنة مرةً، أنا أوثق بمودتهم ممن ألقى كلَّ يوم"، فلما همَّ بالقيام، قام معه، وأوصله إلى باب الدار[٤].

واختص أبو بكر المَرُّوذي[٥] بخدمة أحمد بن حنبل، فكان يبعثه في حوائجه ويقول: كُلّ ما قلتَ فهو على لساني وأنا قلتُه، وكان أحمد يقدمه ويأكل

(١) علي بن عبد الله بن جعفر بن يحيى أبو الحسن السعدي، ويعرف بابن المديني، بصري المولد، كوفي المنشأ، وُلد عام ١٦١هـ/٧٧٨م، وسمع من: حماد بن زيد، وهشام بن بشير، وسفيان بن عيينة، وكان أحمد بن حنبل لا يسميه، وإنما يكنيه؛ تبجيلًا له، مات عام ٢٣٤هـ/٨٤٩م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١١، ص٢١٤.

(٢) ابن مفلح: الآداب الشرعية، ج٢، ص٢٠٢.

(٣) كان أبوه عبدًا روميًّا لرجل من أهل هراة، طلب العلم، وسمع الحديث من إسماعيل بن جعفر، وشريك، وابن عيينة، ويزيد بن هارون، وخلق كثير، وروى اللغة عن البصريين والكوفيين، وصنف الكتب في فنون الفقه والقراءات، وغير ذلك، كان ذا فضل ودين وجود، ومذهب حسن، ومن أبرز مؤلفاته: كتاب «غريب الحديث»، وتولي قضاء طرسوس، مات بمكة عام ٢٤٢هـ/٨٣٩م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١١، ص٩٦.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص١٥٢. ابن مفلح: الآداب الشرعية، ج٣، ص٢٣٨.

(٥) أحمد بن محمد بن الحجاج، صاحب الإمام أحمد ، وروى عنه أحاديث ومسائل كثيرة، كانت أمه مروزية، وأبوه خوارزميًّا، توفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م، ودُفن قريبًا من قبر أحمد بن حنبل. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٢، ص٢٦٤ .

من تَحت يده، ويقول: جزى الله أبا بكر المروذي خيرًا، وهو الذى تولى إغماض أحمد لما مات وغسله [١].

وكان يزيد بن هارون[٢] أَشد تعظيماً لأَحمد بن حنبل، ما رؤي أَكرم أَحدًا إكرامه لابن حنبل، وكان يُقعده إلى جَنبه إذا حدَّث، ولما مَرض ابن حنبل، ركب إليه وعاده [٣].

مما سبق يتبين مدى تقدير الإمام أحمد بن حنبل لأترابه من أهل العلم؛ مما أكسبه المكانة العالية والمنزلة الرفيعة عندهم، وأضفوا عليه مظاهر التبجيل والتكريم.

تواضعه: كما كان متواضعًا معهم، خافضًا لهم الجناح، غير متكلف معهم، روي محمد بن طارق البغدادي – أحد المُحدِّثين – ، قال: "كنتُ جالسْاً إلى جَنب أحمد بن حنبل، فقلتُ: يا أبا عبد الله، أستمدُّ من مِحبرتك؟ فنظر إلىَّ، وقال: لم يَبلغ وَرعى وورعك هذا، وتَبسَّم" [٤].

وقال يَحيى بن مَعِين: ما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل؛ صَحِبناه خَمسين سَنة ما افْتَخر علينا بشيءٍ مما كان فيه من الصَّلاح والخَير[٥]. وقال أبو عثمان

(١) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٦٧٤.

(٢) أبو خالد السلمي الواسطي، الحافظ، وُلد عام ١١٨هـ/٧٩٧م، وسمع من: عاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وشعبة بن الحجاج، وحدّث عنه: علي بن المديني، وأحمد بن حنبل، وعبد الله الدارمي، كان رأسًا في العلم والعمل، ثقة، حجة، كبير الشأن، مات عام ٢٠٦هـ/٨٢١م . الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٣٥٨.

(٣) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص ٨٥ .

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٣٦٦.

(٥) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ج١، ص٣٦٦ .

الشافعي[١] لأحمد بن حنبل: لا يزالُ النَّاس بخير ما منَّ الله عليهم ببقائك، فقال: لا تَقُل هذا يا أبا عثمان؛ ومَنْ أنّا في النَّاس؟ [٢]. وكان ابن حنبل إذا جاءَه الشّيخُ والحَدث من قُريش، أو غيرهم من الأَشراف، لا يَخرج من باب المسجد حتى يُخرجَهم، فيقدمهم، ثم يَخْرج بَعدهم[٣].

وكان يكره الجلوس مكان الآخر، فقد رُوي أنه قام له رجل من موضع، فأبى أن يقعد فيه، وقال للرجل: ارجع إلى موضعك، فرجع إلى موضعه، وقعد أبو عبد اللَّه بين يديه[٤].وكان يمشي وَحْدَهُ مُتَوَاضِعًا، فكان إذا صَلَّى الغداة خرج لمنزله، وقال لطلابه: لا تَتْبَعُونِي، إذا لقي امْرَأَتَيْنِ في الطَّرِيقِ، وكان طريقُهُ بينهما وقف ولم يَمُرَّ حتى يَجُوزَا [٥].

تبادل الهدايا: كما تبادل الهدايا مع أقرانه من أهل العلم؛ وذلك توطيدًا للعلائق بينهم، روى صالح بن أحمد بن حنبل: أنّ رجلًا أهدى إلى أبيه فاكهة، فبعث إليه ثوبًا [٦]. وقدم رجل من سمرقند لسماع الحديث على الإمام أحمد،

(١) ابن الإمام محمد بن محمد بن ادريس الشافعي، ولي قضاء الجزيرة، وحدَّث هناك، واجتمع بالإمام أحمد بن حنبل، فقال له: أبوك من الستة الذين أدعو لهم وقت السحر، سمع من أبيه، وأحمد بن حنبل وغيرهما، كان ثقة، مات عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م.الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١، ص١٠٧

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٦٩ .

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق، ج١، ص٣٧٠.

(٤) أبو يعلي: طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧١، خالد الرباط، سيد عزت عيد: الجامع لعلوم الإمام أحمد، ج٢٠، ص٧٠.

(٥) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج٢، ص٦.

(٦) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٧.

فجعل له مجلسًا؛ فأهدى يومًا إلى ابن حنبل ثوبًا، فأعطاه الإمام أحمد لأحد أصحابه، وقال له: اذهب به إلى السوق فقوِّمه، فقومه نيفًا وعشرين درهمًا، فحجبه ابن حنبل حتى اشترى ثوبين ومقنعتين[١] – أو ثوبًا ومقنعة – وبعث به إليه، ثم أذن له فحدِّثه[٢].

وامتنع ابن حنبل من قبول الهدية إذا لم تكن على عمل البرّ، كأن تكن فيها شبهة، فقد وجَّه رجل من الصين بكاغد (الورق) صيني إلى جماعة من المُحدِّثين، ووجه بقمطر[٣] إلى ابن حنبل، فردّه، وامتنع من قبوله [٤]. وولد لابنه صالح مولود، فأهدى صديق له شيئًا، وأراد الخروج إلى البصرة، فطلب من صالح أن يكتب الإمام أحمد إلى المشايخ بالبصرة؛ ليسمع عليهم، فلما كلمه، قال: "لولا أنه أهدى إليك، كنت أكتب له" [٥].

كما رفض الإمام أحمد قبول هدية الخليفة المتوكل(٢٣٢– ٢٤٧هـ/٨٤٧–٨٦١م)، وقام بتوزيعها على المُحدِّثين وأهل العلم، حيث أرسل لابن حنبل بعشرة آلاف درهم؛ لينفق منها؛ فامتنع من قبولها، فقيل له: لما لا تخشى من ردّك إياها، فلعل أن يقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك قبولها، فوضعها عنده، ثم

(١) مفردها مقنعة، ورجل مقنع، بالتشديد، أي عليه بيضة ومغفر، والمقنع: المغطى رأسه؛ وقيل: المقنعة: ما تتقنع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها. ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٣٠٠، ٣٠١.

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٢٨. ابن مفلح: الآداب الشرعية، ج٢، ص٢٨.

(٣) الجمع قَماطِرُ، وكُلُّ شَيْءٍ جَمَعْتَهُ، فَقَدَ قَمْطَرْتَه، والقِمَطْرُ والقِمْطَرةُ: مَا تُصان فِيهِ الْكُتُبُ؛ ومنه قول الشاعر: لَيْسَ بعِلْمٍ مَا يَعي القِمَطْرُ ... مَا العِلْمُ إلا مَا وَعاه الصَّدْرُ. ابن منظور: لسان العرب، مادة قمطر، ج٥، ص١١٧.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢٠٦ .

(٥) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص٤١.

ذهب، فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله، وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث، وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرقها في النَّاس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين، فلم يبق منها درهمًا، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعط منها لأهله شيئًا، وهم في غاية الفقر والجهد(١).

نصحه لطلابه ومشاركته مناسباتهم: كما قرب الإمام طلابه منه، وأكرمهم، وأفشى إليهم أسراره، فهذا الحسن بن ثواب(٢) كان ابن حنبل يقربه، وكان له به أنس شديد، قال: كنت إذا دخلت إلى أبي عبد اللَّه يقول لي: "إني أفشي إليك ما لا أفشيه إلى ولدي ولا إلى غيرهم" (٣).

كذلك حرص الإمام أحمد على توجيه النصح والتوجيه والإرشاد لأقرانه من أهل العلم بأدب ولطف، فقيل: كان يجتمع في مجلس أحمد بن حنبل زُهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمس مئة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حُسن الأدب وحُسن السَّمْت (٤).

(١) ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) بن على الثعلبي المخرمي، سمع من يزيد بن هارون، وإبراهيم بن حمزة المدني، وعمار بن عثمان الحلبي، وروى عنه: عبد اللَّه بن محمد بن إسحاق المروزي، وجعفر بن عبد اللَّه بن مجاشع، وإسماعيل الصفار، بغدادي ثقة، شيخ كبير، جليل القدر، مات عام ٢٦٨هـ/٨٨٢م. ابن مفلح: (إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح ت ٨٨٤هـ/١٤٧٩م) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية،١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج١، ص٣١٧، ٣١٨.

(٣) أبو يعلي: طبقات الحنابلة، ج١، ص١٣٢، خالد الرباط: الجامع لعلوم الإمام أحمد، ج٢٠، ص١٣٧.

(٤) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٢٨٨.

وأخبر هارون بن عبد الله الحمال[١] قال: "جاءَني أحمد بن حنبل بالليل، فدقَّ الباب عليَّ، فقلتُ: من هذا؟ فقال: أنا أحمد، فبادرت إليه فمسّاني ومسَّيته، قلت: حاجةً يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، شَغلتَ اليومَ قلبي، قلت: بماذا يا أبا عبد الله؟ قال: جزتُ عليك اليوم وأنت قاعدٌ تُحدِّث النَّاسَ، والنَّاسُ في الشمس بأيديهم الأقلام والدفاتر، لا تفعل مَرة أخرى، إذا قعدت فاقعد مع النَّاس"[٢].

هذا إن دل فإنما يدل على شفقة الإمام أحمد بن حنبل بطلابه ورحمته بهم، وتقديمه النصح والإرشاد لهم بأدب ولطف.

كما شارك الإمام أحمد إخوانه من أهل العلم مناسباتهم، فمَنْ كان مريضًا عاده، ومَن كان في كرب نفس عنه وواساه، وكان يتخير الوقت المناسب للزيارة، قيل له ذات مرة : فُلانٌ مَرِيضٌ، وكان عند ارتفاع النَّهارِ في الصَّيْفِ؟ فقال: ليس هذا وقت عِيادَةٍ[٣]. وقال أبو بكر المَرُّوذِيُّ: عُدْت مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مَرِيضًا بِاللَّيْلِ، وَكانَ في شَهْرِ رَمَضانَ، ثُمَّ قال لِي: في شَهْرِ رَمَضانَ يُعادُ بِاللَّيْلِ[٤].

ومجمل القول: فإنَّ الإمام أحمد كان محبًّا لأقرانه من العلماء وطلاب العلم، كثير البرِّ والإحسان إليهم، كثير التودد، حريصًا على استضافتهم في بيته، ساعيًّا في قضاء حوائجهم، مشاركًا لهم في المناسبات الخاصَّة، يعود المرضى، ويشهد الجنائز، لذا نال المكانة العالية والمنزلة الرفيعة لديهم، وقد وضح ذلك في جنازته، حيث كانت حافلة شهدها القضاة والعلماء.

---

(١) ابن مروان البغدادي التاجر البزاز، الملقب: بالحمال، وُلد عام ١٧١هـ/٧٨٨م، وسمع من: سفيان بن عيينة، ومحمد بن حرب الخولاني، وحرمي بن عمارة، وغيرهم، وروى عنه: موسى بن هارون، وأبو زرعة، ويحيي بن صاعد، كان ثقة، صدوقًا، مات عام ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م. الذهبي: أعلام النبلاء، ج١٢، ص١١٥.

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٠١.

(٣) خالد الرباط، سيد عزت عيد: الجامع لعلوم الإمام أحمد، ج٢٠، ص١٧٤.

(٤) ابن مفلح: الآداب الشرعية، ج٢، ص٢٠٠، خالد الرباط، سيد عزت عيد: المرجع السابق، ج٢٠، ص١٧٤.

المبحثُ الثَّالثُ: علاقته مع الحكام.

كان الإمام أحمد بن حنبل ورعًا زاهدًا فيما عند الحكام، رافضًا تولي المناصب، حيث كان منعزلًا عن الخلفاء والأمراء؛ خشية المداهنة والافتتان، فكان يرفض الدخول عليهم، ولا يقبل عطاياهم، ويمتنع من الكتابة إليهم، ويتعفف عن مال الخلفاء، ودعا أقرانه من أهل العلم إلى عدم إتيان أبواب الخلفاء والأمراء؛ صيانة لأنفسهم وعلمهم، وقد تجلي ذلك في أقواله وأفعاله، حدِّث عنه ولده صالح قال: " ثلاثةٌ لَا تَبْلُوَنَّ نفسك بِهِنَّ: لا تدخُلَنَّ على سُلْطَانٍ، وإن قُلْت آمُرُهُ بِطَاعَةٍ، ولا تَدْخُلَنَّ امرأَةٍ، وَإِنْ قُلْت أُعَلِّمُهَا كتاب اللَّهِ، وَلَا تُصْغِيَنَّ سمعك لذي هوي، فَإِنَّك لا تدري مَا تَعَلَّقَ قَلْبُك مِنْهُ" (١).

وبلغ ورعه وتقشفه وزهده في رفضه للمناصب، حيث يُروى أن الشافعي قال لهارون الرشيد(١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩م): إنَّ اليمن يحتاج إلى قاض، فقال له: فانظر رجلًا ممن يجلس إليك؛ حتى توليه قضاءها، فأشار الشافعي بأحمد بن حنبل؛ ليكون قاضيًّا على اليمن؛ فامتنع ابن حنبل من ذلك امتناعًا شديدًا، وقال للشافعي: "إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدُّنيا، فتأمرني أن ألي القضاء؟ ولولا العلم لما أكلمك بعد اليوم، فاستحى الشافعي منه" (٢). وهذا يؤكد على ورع الإمام أحمد وتعففه عن عطاء الخلفاء، ورغبته في أن يتفرغ للعلم وحده.

كما امتنع الإمام أحمد من قبول عطايا وهدايا الخلفاء والأمراء؛ صيانة لنفسه من فساد دينه، وما ينتج عنه من مداهنتهم وموافقتهم في ظلمهم، فلما تولي المتوكل الخلافة (٢٣٢- ٢٤٧هـ/٨٤٧- ٨٦١م) أكرمه وبعث إليه مالًا

(١) ابن مفلح: الآداب الشرعية، ج٢، ص٢١.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٥، ص٢٧٤، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٢٨.

كثيرًا؛ فتصدق به، وزاره ليحدِّث أولاده، فحلف أن لا يحدِّث، فلم يحدِّث حتى مات[١].

وأرسل له الخليفة المتوكل بأموال وهدايا ثمينة مع يَعْقُوب قوصرة[٢]، ووجَّه إليه بعشرَة آلاف دِرْهَم؛ فَلم ينظر إِلَيْهَا، ثم طلب من ولده صالح أن يأخذ هذه الصرة فيضعها فوق سطح البيت، ثم نادي على ابنه في الليل، وقال له: "مَا نمت لَيْلَتي هَذِه، فقال: لمَّ، فجعل ابن حنبل يبكي، وقال: سلمت من هؤلاء حَتَّى إذا كان أخر عمري بُليت بهم"، وطلب منه أن يفرقها، فلم يزل حَتَّى فرقها كلها ونفض الْكيس، وكان في غاية الضيق، وكتب صاحب الْبَرِيد إلى الخليفة أنه تصدق بِالدَّرَاهِمِ من يومه حَتَّى تصدق بالكيس، فقال عَليّ بن الجهم[٣] : يا أمير الْمُؤمنِينَ قد تصدق بها، ما يصنع أحمد بالمال، وإنما قوته رغيف، فَقَالَ له صدقت يَا عَليّ [٤].

وهكذا اتضح زهد الإمام أحمد، فقد كان ورعًا، عفيفًا، تاركًا أهل الولايات، كارهًا التزلف للخلفاء والأمراء، وقبول عطاياهم وهداياهم، رغم عوزه وقلة ذات

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج١١، ص٢٨٨ .

(٢) بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْبَاذَغِيسِيُّ مَوْلَى الْهَادِي، الْمَعْرُوفُ بِقَوْصَرَةَ، صاحب بريد مصر والمغرب، كَانَ نَائِبًا عَلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ من جهة المتوكل، مات عام٢٤١هـ/٨٥٥م. ابن الأثير: (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٦، ص١٥٣، ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) علي بن الجهم بن بدر السامي، من ولد سامة بن لؤي بن غالب، كان شاعرًا ، و له اختصاص بالمتوكل، وكان فاضلًا متدينًا، ذا شعر جيد مستحسن، إلَّا أنه كان يتكلم عند المتوكل على أصحابه؛ فحبسه المتوكل، ثم نفاه إلى خراسان، مات ببغداد عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٢، ص٢٦.

(٤) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص٩٦، ٩٧.

يده، ولعل ابن حنبل خشي من الإكراه على هذا المال، فتكون الوقيعة بينه وبين الخليفة المتوكل، لذا قبله ووزعه على المحتاجين والفقراء.

والجدير بالذكر أن ألسنه السوء لما رأت ارتفاع منزلة الإمام أحمد عند الخليفة المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/٨٤٧- ٨٦١م) أخذت تحرض عليه، فعمد الحاقدون على النيل منه بسعاية كاذبة، فكاتبوا الخليفة المتوكل أن رجلًا من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل، وهو يبايع له النَّاس في الباطن، فأمر الخليفة نائب بغداد أنّ يقتحم منزل ابن حنبل من الليل، فلم يشعر ابن حنبل وأهله إلَّا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب، حتى من فوق الأسطحة، فوجدوا الإمام أحمد جالسًا في داره مع عياله، فسألوه عما ذكر عنه، فقال: ليس عندي من هذا علم، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية، وفي عسري ويسري ومنشطي ومكرهي، وأثرة علي، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق، في الليل والنهار، في كلام كثير، ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئًا، فلما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أن هناك مَنْ يكذبون عليه كثيرًا، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم؛ فامتنع من قبولها[١]. وقيل: إنَّ المتوكل أخذَ العلوي الذي سَعى بأحمد بن حنبل إليه، وأرسله إلى ابن حنبل ليقولَ فيه مقالة للسلطان، فعفا عنه، وقال: "لعلّه يكون له صِبيان يُحزِنهم قَتله" [٢].

(١) صالح بن حنبل: سيرة أحمد، ج١، ص٩٣، ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٤٨٦، ٤٨٧، ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٣٧.

(٢) ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٤٨٧.

كذلك امتنع الإمام أحمد من قبول الثياب والأمتعة من الخليفة المتوكل، فقد أرسل إِلَيْهِ أقمشة وطليسانًا [١] وقلنسوة [٢]، فوجَّه صالح ابنه بِهذه الثِّيَاب إلى بغداد يُبَاع ويتصدَّق بِثمنِهَا، فَبَاعَهَا وَفرق ثمنهَا [٣].

وأجرى المتوكل(٢٣٢- ٢٤٧هـ/٨٤٧- ٨٦١م) على ولده وأهله أربعة آلاف درهم فِي كل شهر، فبعث إليه ابن حنبل إنهم فِي كفاية، فبعث إليه المتوكل إنما هذا لولدك، فقال له أحمد: "ما بقي من أعمارنا كأنك بالأمر قد نزل، فالله اللَّه، فإن أولادنا إنما يريدون يتأكلون بنا، وإنما هي أيام قلائل لو كشف للعبد عما قد حجب عنه، لعرف ما هو عليه من خير أو شر، صبر قليل، وثواب طويل، إنما هذه فتنة" [٤].

وقد بلغ من ورعه أنه كانت لزوجته أم عبد اللَّه دارًا يأخذ منها درهمًا بحق ميراثه، فاحتاجت الدار إلى نفقة لتصلحها، فأصلحها ابنه عبد اللَّه، فترك أحمد بن حنبل الدرهم الذي كان يأخذه، وقال قد أفسده عليَّ، وإنما تورع من أخذ حقه من الأجرة؛ خشية أن يكون ابنه أنفق على الدار مما يصل إليه من مال الخليفة،

---

(١) طَيْلَسان: جمعه طَيَالِسُ وطيالِسة، وهو: كساء أخضر يضعه بعض العلماء والمشايخ على الكتف. أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٢، ص١٤٣٢.

(٢) جمعها: قَلانِسُ وقَلَنْسٍ، وهي من ملابس الرُّؤوس، وهي: دنية عالية في شكل قمع السكر، كان يلبسها خلفاء بني العباس في رؤوسهم، ووزرائهم، والقضاة، وهي مختلفة الأشكال والألوان . ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص١٨١، رينهارت بيتر آن دُوزِي ت ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، جمال الخياط ، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٨، ص٣٧٣.

(٣) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص١٠٠- ١٠٢.

(٤) أبو يعلي: طبقات الحنابلة، ج١، ص١١.

ونهى ولديه وعمه عَنْ أخذ العطاء من مال الخليفة؛ فاعتذروا بالحاجة؛ فهجرهم شهراً؛ لأخذ العطاء [١].

ولما توفّي أحمد بن حنبل وَاجْتمعَ النَّاس فِي الشوارع وجَّه عبد الله بْن أبي طَاهِر بحاجبه وَمَعَهُ غلامان مَعَهم مناديل فِيهَا ثِياب وطيب، فقالوا لابنه صالح: الأمير يُقْرِئك السَّلام، ويقول: قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضره كان يفعل ذلك لَهُ، ففقال ولده صالح لَهُ أقرأه السَّلَام، وقل لَهُ: إن أمير الْمُؤمنِينَ قد أَعْفَاهُ في حياته مما كان يكره، ولا أحبُّ أن أتبعه بعد موته بما كان يكرههُ فِي حياته، وَقد كان غزلت لَهُ جارِيَة ثوبًا، فأوصى الإمام أحمد بن حنبل أن يكون كفنًا له، ووَجَّه بعض أَصْحَابه من العطارين بحنوط؛ فأبى أولاده [٢].

ورُوي أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل، ولا خلف بنيه ولا يكلمهم؛ لأنهم أخذوا جائزة السلطان، ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله، حتى بعث إلى بعض أصحابه؛ فاستقرض منه دقيقًا، فعرف أهله حاجته إلى الطعام، فعجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعًا، فقال: ما هذه العجلة! كيف خبزتم؟ فقالوا: وجدنا تنور بيت صالح مسجورًا فخبزنا لك فيه، فقال: ارفعوا، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح؛ وذلك لأن صالحًا أخذه جائزة الخليفة المتوكل على الله[٣].

كما امتنع من أكل طعامهم ورعًا وزهدًا، قال عبد الله ابنه: مكث أبي بالعسكر[٤] عند الخليفة المتوكل ستة عشر يومًا لم يأكل فيها إلَّا ربع مُدٍّ [١]

(١) أبو يعلي: طبقات الحنابلة، ج١، ص١٠.

(٢) صالح بن حنبل: سيرة أحمد، ج١، ص١٢٨.

(٣) ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٢٨.

(٤) هي مدينة سامراء (سرّ مَنْ رأى)، احدى مدن العراق الشهيرة، وكانت تسمّى " مدينة العسكر "؛ لأن المعتصم حين بناها انتقل إليها بعسكره فسمَّيت بذلك، وكان سبب ذلك =

سَوِيقًا ، يفطر بعد كل ثلاث ليال على سفة منه حتى رجع إلى بيته، ولم ترجع إليه نفسه إلَّا بعد ستة أشهر، وقد كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع، فكان لا يتناول منها شيئًا، وقيل: بعث المأمون(١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣ – ٨٣٣م) مرة ذهبًا يقسم على أصحاب الحديث، فما بقي منهم أحد إلَّا أخذ إلَّا أحمد بن حنبل؛ فإنه أبى(٢).

ورفض قبول المسكن ، فقد أمر المتوكل أن يُشترى له دار، فقال ابن حنبل لابنه: يا صالح، قلت: لبيك، قال: لئن قررتَ لهم بشراءِ دار لتكونَنَّ القطيعةُ بيني وبينك، إنما يريدون أن يُصيّروا هذا البلدَ لي مأوى ومسكناً، ثم اكترى دَارًا أخرى، وتحول إِلَيْهَا، فَسَالَ المتَوَكل عَنهُ، فَقيل: إنَّه عليل، فقال: كنت أحبُّ أن يكون فِي قربي، بألف دِينَار (٣).

وقَدم محمد بن عبد الله بن طاهر، فوَجَّه إلى الإمام أحمد: أحبُّ أن تَصير إليَّ، وتُعلمني اليوم الذي تَعزم عليه حتى لا يكون عندي أحد، فوجَّه إليه: " أنا رجلٌ لم أخالط السلطان، وقد أعفاني أميرُ المؤمنين مما أكره؛ وها مما أكره"،

=

كثرة عسكره، وضيق بغداد عنه، وتأذي الناس به، وذلك عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م. ابن الجوزي: المنتظم، ج١١، ص٥٠، الزركلي: الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج٤، ص٣٢٣.

(١) المُدُّ، بِالضَّمِّ، مِكْيَالٌ وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلُثٌ عِنْدَ أَهل الْحِجَازِ وَالشَّافِعِيِّ، وَرِطْلَانِ عِنْدَ أَهل الْعِرَاقِ، وَالصَّاعُ أَربعة أَمداد. وَفِي حَدِيثِ فَضْلِ الصَّحَابَةِ: مَا أَدْرَك مُدَّ أَحدِهم وَلَا نَصِيفَه؛ وَالْمُدُّ، فِي الأَصل: رُبُعُ صَاعٍ وإِنما قَدَّره بِهِ لأَنه أَقلُّ مَا كَانُوا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ فِي الْعَادَةِ. ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص٤٠٠.

(٢) ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٢٨.

(٣) صالح بن حنبل: سيرة أحمد، ج١، ص١١٠، ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٣٩٦

فجهد أن يصير إليه؛ فأبى[١]. ولعل امتناع أحمد من زيارة ابن طاهر؛ لأنّه كان أميرًا، وألَّا فقد كان يَزور أهلَ الدين والعلم.

والجدير بالذكر أن الإمام أحمد كان ورعه وزهده عامًّا مع جميع النَّاس، حكامًا ومحكومين، رُوي أنه رهن سطلًا [٢] له عند رجل باليمن، فلما جاءه بفكاكه أخرج له سطلين فقال: خذَّ متاعك منهما، فاشتبه عليه أيهما له، فقال: أنت في حلَّ منه ومن الفكاك، وتركه وذهب[٣].

وحكى ابنه عبد الله قال: كنا في زمن الواثق(٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) في ضيق شديد، فكتب رجل إلى أبي: بلغني يا أبا عبد الله مَا أَنْت فِيهِ من الضّيق وما عليك من الدّين، وقد وجهت إِلَيْك بأَرْبعَة آلاف دِرْهَم على يَدي فلَان؛ لِتَقْضي بهَا دينك، وَتوسع على عِيَالك، وَمَا هِيَ من صَدَقَة، وَلَا زَكَاة، وإنما هُوَ شَيْء ورثته من أبي؛ فامتنع من ذلك، وكرر عليه؛ فأبى[٤].

وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها باسمه؛ فأبى أن يقبلها، وقال: نحن في كفاية. وعرض عليه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار؛ فامتنع من قبولها وقام وتركه. ونفدت نفقة أحمد وهو في اليمن، فعرض عليه أحد مشايخه ملء كفه دنانير، فقال: نحن في كفاية ولم يقبلها [٥].

(١) صالح بن حنبل: سيرة أحمد، ج١، ص١٢٤، ابن الجوزي: مناقب أحمد، ج١، ص٤١١.

(٢) السَّطَلُ: الطَّسْت، أو الطُّسَيسَةُ الصغيرةُ، وَالْجَمْعُ سُطُول، وهو عربي صحيح. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٣١.

(٣) ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٢٨، ٣٢٩.

(٤) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص٤٤.

(٥) ابن كثير: البداية، ج١٠، ص٣٢٨، ٣٢٩.

وجاء رجل بعشرة آلاف من ربح تجارته إلى أحمد؛ فردّها. وقيل: إنَّ صيرفيًّا بذلّ لأحمد خمس مائة دينار؛ فلم يقبل(١).

مما تقدم يتضح: أنَّ الإمامَ أحمد بن حنبل – رحمه الله – قد رفض أي شكل من أشكال التقارب مع الحكام والأمراء، فقد رفض تولي منصب القضاء، ومجالسة الخلفاء والأمراء، كما امتنع من قبول عطاياهم وهداياهم، فكان معظم اهتمامه الانصراف إلى الآخرة، آخذًا من الدُّنيا ما يعينه على الوصول إلى الله – تعالى –، بعيدًا عن ملذات الدُّنيا وشهواتها، مقبلًا على العلم والتدريس، وإفادة النَّاسِ، مما حدا القول: " إنَّه لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه النَّاس من أمر الدُّنيا، فإذا ذُكِر العلم تكلم" (٢).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢١٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج١١، ص٢٨٧ .

الخاتمة

لقد ضرب الإمام أحمد بن حنبل أروع الأمثلة في الجمع بين العلم والعبادة وعلاقته مع كافة طوائف المجتمع، فلم يقتصر نشاطه على التدريس والتأليف فحسب، بل تواصل وتلاحم مع النَّاس، وشاركهم مناسباتهم، وأحسن إليهم، وبرّهم، وحاول التخفيف من معاناتهم.

ومن أهم نتائج البحث:

أوّلًا: عاش الإمام أحمد بن حنبل زاهدًا، ورعًا، فكان رغم فقره وضيق عيشه رافضًا للرياسة والمناصب، يكفيه من الدُّنيا القليل.

ثانيًا: كان الإمام أحمد متواضعًا مع أهله، رفيقًا بهم، مُتلطِّفًا معهم، فكان في خدمة أهله، يشتري الخبز من السوق، ويحمل الحطب، مقتديًّا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – الذي كان أحسن النَّاس عشرة لأهله، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ– رضي الله عنه –، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: ﴿خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي﴾ (١).

ثالثًا: أحسن الإمام أحمد لطبقة العامَّة، حيث كان حليمًا، ناصحًا لهم، شديد التواضع معهم، كثير البذل والصدقة للمحتاجين منهم، حريصًا على قضاء حوائجهم، بما تيسر له من جهد ومال؛ مما أدى إلى إجماع القلوب على محبته، وحظي باحترامهم وتقديرهم.

رابعًا: اتسمت علاقة الإمام أحمد – رحمه الله – بالحكام بالبعد والفتور، فكان منعزلًا عن الخلفاء والأمراء، متعففًا عن مالهم، رافضًا تولى الوظائف لهم.

---

(١) ابن ماجه: (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٣هـ/٨٨٦م) سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، باب حسن معاشرة النساء، حديث رقم١٩٧٧، ج١، ص٦٣٦.

خامسًا: نسج الإمام أحمد بن حنبل علاقات طيبة مع أترابه من العلماء، فكان مُعظّمًا لهم، كريمًا بضيوفه من أهل العلم، وتبادل معهم الهدايا، وشاركهم مناسباتهم العامَّة من زواج، وختان، وزيارة المرضى، وغير ذلك.

التوصيات:

١ـ العمل على تجريم الطعن في الأئمة والفقهاء والعلماء، من خلال سن قانون يمنع ويردع الأفاكون الكاذبون الذين يخوضون في ذلك؛ لغلق الباب أمام المتنطعين والملاحدة، فكم من مأجور خبيث خادم لأجنداتٍ غربية يسعي للطعن في رموز المسلمين؛ لهدم الدين وتقويض أركانه، وللأسف نجد أمثال هؤلاء يُمنحون الأموال الطائلة، وتُفتح لهم الأبواق الإعلامية؛ لبث سمومهم وأباطيلهم الكاذبة.

٢ـ أنَّ تُعِني الهيئات والمؤسسات الدينيّة بنشر جهود أئمة المسلمين الأوائل العلميّة والتربويّة والاجتماعيّة؛ لتوعية شباب الأمة، وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم، ومَنْ ثَمَّ غرس القدوة والمثل الأعلى في نفوسهم.

٣ـ العمل من خلال مؤسسة الأزهر الشريف والمؤسسات الإسلاميَّة الأخرى على تنقية تراث الإمام أحمد بن حنبل – وغيره من الأئمة والفقهاء – من كل قول دخيل لم يكتبه، وما صدر منه سهوًا، وتوضيح الغامض والمُشكل منها؛ لغلق الباب أمام المتربصين الذين يجدون في ذلك ذريعة؛ لتحقيق مآربهم الخبيثة.

هذا، فإنْ كان اجتهادي صابئًا فلله الحمدُ والمنة، وإنْ كان الأخرى فأرجو أن يكونَ لي أجر المجتهد.

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .

وصلى اللَّهُمَّ وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد رب العَالمِين.

ملحق: وَصِيَّة أبي عبد الله أحمد بن حنبل – رحمه الله –

بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

هَذَا مَا أوصى بِهِ أَحْمَد بن مُحَمَّد بن حَنْبَل: أوصى أَنه يشْهد أَن لَا اله إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ، وأن مُحَمَّدًا – صلى الله عليه وسلم – عَبده وَرَسُوله، أرْسلهُ بِالْهدى وَدين الْحق لِيظْهرهُ على الدّين كُله وَلَو كره الْمُشْركُونَ.

وَأوصى من أطاعه من أَهله وقرابته أَن يعبدوا الله فِي العابدين ويحمدوه فِي الحامدين، وأن ينصحوا لجَماعَة الْمُسلمين.

وَأوصى أَنِّي قد رضيت بِاللَّه رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دينًا، وَبِمُحَمَّدٍ – صلى الله عليه وسلم – نَبيًّا.

وَأوصى أَن لعبد الله بن مُحَمَّد الْمَعْرُوف ببوران على نَحْو من خمسين دِينَارًا، وَهُوَ مُصدق فِيمَا قَالَ، فَيقْضى مَاله عَليّ من غلَّة الدَّار إِن شَاءَ الله، فَإِذا استوفى أعْطى وَلَدي صَالح وَعبد الله ابنا أَحْمَد بن مُحَمَّد ابْن حَنْبَل كل ذكر وَأُنْثَى عشرَة دَرَاهِم بعد وَفَاء مَا عَليّ لِابْنِ مُحَمَّد.

شهد أَبُو يُوسُف وَصَالح وَعبد الله ابْنا أَحْمد بن مُحَمَّد بن حَنْبَل[١]

(١) صالح بن حنبل: سيرة الإمام أحمد، ج١، ص١٠٩ .

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

*ابن الأثير: (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري، عز الدين ابن الأثير ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

١ـ الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

*البغدادي: (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م).

٢ـ تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

*البيهقي: (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م).

٣ـ شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

*ابن الجوزي: (جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١ م).

٤ـ مناقب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط٢، دار هجر، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥ـ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

*الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

٦ـ معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

*ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي ٦٨١هـ/١٢٨٢م).

٧ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر ، بيروت، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

*الدمشقي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي ت ٧٤٤ هـ/ ١٣٤٣م).

٨ـ طبقات علماء الحديث، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، ط٢، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

*الذهبي: (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

٩ـ تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.

١٠ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

*صالح ابن حنبل: (صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ ت ٢٦٥هـ/ ٨٧٩ م).

١١ـ سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط٢، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

*الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م).

١٢ـ الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

*ابن عساكر: (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م).

١٣ـ تاريخ دمشق ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

*ابن كثير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

١٤ـ البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

*ابن ماجه: (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٣هـ/٨٨٦م).

١٥ـ سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.

*ابن مفلح: (محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج أبو عبد الله المقدسي الصالحي الحنبلي ت ٧٦٣هـ/١٣٦٢م).

١٦ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية، عالم الكتب، بيروت.

*ابن مفلح: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح ت ٨٨٤هـ/١٤٧٩م).

١٧ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية،١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

*ابن منظور: (محمد بن مكرم بن على ابن منظور الانصاري الرويفعى الافريقى ت ٧١١هـ/١٣١١م).

١٨ـ لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٩ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، ط١، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م.

*النووي: (أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م).

٢٠ـ تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

*أبو يعلي: (أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد ت ٥٢٦هـ/١١٣٢م).
٢١ـ طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

ثانيًا: المراجع:

١ـ إبراهيم النحاس: الجامع لعلوم الإمام أحمد (علوم الحديث)، ط١،دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م.
٢ـ أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م.
٣ـ خالد الرباط، سيد عزت عيد: الجامع لعلوم الإمام أحمد بن حنبل (الرجال)، ط١، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، جمهورية مصر العربية، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م.
٤ـ رينهارت بيتر آن دُوزِي ت ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط ، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٥– الزركلي: الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٦ـ محمد أبو زهرة : ابن حنبل " حياته وعصره، آراؤه وفقهه"، دار الفكر العربي، القاهرة.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

١ـ ختام محمود الفرعان: الفكر التربوي عند الإمام أحمد بن حنبل، ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
٢ـ عبد الله سعد الغامدي: الإمام أحمد بن حنبل محتسبًا، ماجستير، كلية الدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.